رحيل الرواد في الوطن العربي

إبراهيم السامرائي نموذجاً

بقلم : د . يوسف عزالدين*
العراق

ترتفع مكانة الأمة وتسمو متى رعت الفكر وعنيت بالعلم وشجعت الإبداع والاختراع، وآزرت حركات التجديد والأصالة، لأن العناية بالمبدع ورعاية العالم وتشجيع المخترع أهم أسس التطور لبناء الحضارة ورفع مستوى المجتمع ليأخذ مكانته اللائقة بين المجتمعات العالمية .،لن تزدهر الحضارة وتسمو الأمم إلا برعاية النابغين والمبدعين والرواد من أبنائها، وهذه أمريكا وكندا واستراليا تبذل قصارى جهدها لجلب النوابغ من كل الأمم برغم تباين الأصول واختلاف اللغات والمعتقدات وتبذل الغالي في سبيل دعم حضارتها بهم فازدهرت العلوم والآداب في ربوعها، وسيطرت على العالم كله عندما حوت أمريكا علماء العالم، وأمتنا تضيع خير العلماء وأبرز المفكرين وقواد الأدب والفنون كل عام دون اكتراث أو اهتمام، فكانت وستظل كما كانت لأنها لم تفكر بالنزيف الفكري والضياع العلمي الذي يتسرب منها، لأنها لم ترع العلم وتعتن برواده ،وتهمل النابغة ولا تكترث بترك ربوعها هؤلاء النوابغ.

في خلال عام واحد توفي الدكتور إبراهيم السامرائي في عمان،والدكتور محمد رشيد الفيل في أسبانية، والدكتور عبد الجبار المطلبي في مسقط، وقبلهم توفي الدكتور صفاء خلوصي في بريطانية،وهناك عدد من الأساتذة العرب في مختلف أصقاع العالم ولهم اختصاصات نادرة في الفيزياء والكيمياء والذرة والإلكترون والكهرباء، يعملون في هذه الأقطار وبعضهم رضي بغير اختصاصه، فمتى تفكر الأمة العريقة من الاستفادة من هؤلاء الرواد، وتقضي على القطرية والعشائرية والبلدانية كما قضت عليها أمريكا وأستراليا وكندا؟ فتقدمت بهؤلاء وطورت حياتها وحضارتها ومجتمعاتها.

والدكتور إبراهيم السامرائي هو أحد هؤلاء الرواد الأوائل باللغة العربية فقد عني بالفصحى ومفرداتها عناية دقيقة، ووقف حياته على تدريسها والتأليف عنها، وأكد ضرورة العناية بها، كان حاضرا في مؤتمرات مجمع اللغة العربية في القاهرة ببحوثه ومناقشاته وآرائه، وقدم في آخر اجتماع لنا بحثا عن (لغة الإعلام المعاصر).

صلتي به قديمة منذ كنا طلابا في دار المعلمين الابتدائية في الأعظمية ثم نجح في الثانوية وذهب إلى دار المعلمين العالية، ودرس سنتين ثم سافر إلى باريس مبعوثا إلى السوربون، وبعد ثماني سنوات عاد مدرسا في كلية الآداب سنة ١٩٥٦، واستفادت منه جامعات تونس وصنعاء وعمان وغيرها من الجامعات. اختص بفقه اللغة وتاريخها ونحوها وأسهم في دراسة تطورها وأصواتها القديمة والحديثة، وطبعت له عدة كتب في بغداد وتونس وبيروت وعمان. وهي كثيرة الفائدة عميمة النفع، ومنها دراسات لغوية وفقه اللغة المقارن والمصادر في اللغة والآداب والتطور اللغوي والجغرافي واللغة بين جيلين واللغة والحضارة وقد عني باللغة في القرآن الكريم؛ فكتب من وحي القرآن، ومن أساليب القرآن، ومن بديع القرآن، ولم يغفل عن لغة الأدب فكتب عن: معجم المتنبي ومعجم الجاحظ .

---

* ويلز - عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وقد حقق عددا من الكتب التي نشرها المستشرقون، وصوب الآراء والأغلاط التي وردت في التحقيق وأعاد النصوص الأدبية إلى الحياة فقد حقق نزهة الألباء للأنباري، والمرصع لابن الأثير، وخلق الإنسان للزجاج، والتشابه للثعالبي، وقد أسهم في تحقيق كتاب العين مع الدكتور مهدي المخزومي، وأخبرني بأسف شديد بأن ابن المخزومي أعادطبع العين في مدينة قم وحذف اسمه وعسى أن الخبر الذي وصله ليس صحيحا.

أقول بصراحة: لم ينل الرجل حقه من التقدير، ولعل البلدانية والإقليمية عند بعض المسؤولين حالت دون أن يتعهد بعض الأدباء والمفكرين والعلماء العرب أشقاؤهم في البلدان العربية الأخرى، مرة أخرى أقول: لو أن البلدان العربية الغنية احتوت قادة المفكرين النازحين عن بلادهم، وهم الذين قضوا زهرة أعمارهم في نشر العلم والمعرفة لتقدمت هذه الأقطار على العالم المتحضر، وأخذت قصب السبق العلمي والفكري والحضاري، فقد قال لي : إنه سمع بأن أحد زملائه يقول : إنه جاء إلى بلدهم ليزاحمهم على لقمة العيش. وأصبح الرائد غريبا في الوطن العربي، ومقدرا في أمريكا وكندا وأستراليا، وقد أحس الدكتور إبراهيم الغربة والألم في نفسه فقال:

لم نعد فضل حاجة طمعا
ولا عفت ساحة جزعا
أرفاق الشتات حسبكم
إن رحبا من أرضنا قطعا
لا تراعوا إن رحتم همللا
في اغتراب لستم له سلعا
لتكونوا صنائع ابتذلت
أو طبولا تمنى لمن قرعا
ولتكونوا لما استوى لكم
بين أهل فلستم تبعا

ويصف آلامه في غربته ويخاطب الرواد والقادة وكل غريب بقوله:

أرفيق الشتات لا غضب
أنا فيه أشقى بما فجعا
أنا لبعض الورى ويحسبني
غير أهلي عن أهله انتزعا

وقد كان الأمل يرفرف حوله ويرجو العودة إلى وطنه بكرامة وشرف:

ورجوع يحفه شرف
غير سعي لخائب رجعا
وثواب للأكرمين ندى
وجزى الله أمة ورعا

أستاذ فاضل درس أكثر من خمس وعشرين سنة في الجامعة وطلب إحالته علي التقاعد ١٩٨٠م وقد ذكر سيرة حياته في (الأعضاء المراسلون لمجمع اللغة العربية) في القاهرة فقال : الاسم الكامل إبراهيم بن أحمد بن راشد السامرائي (النسبة إلى مدينة سامراء في شمال بغداد، وكانت عاصة الخلافة العباسية الثانية ومحل الميلاد مدينة العمارة في العراق.

إضافة إلى مكانته العلمية فقد كان شاعرا مرهف الحواس عانى من الغربة الروحية شأن المثقفين العرب الذين لم يجدوا الاحتواء في أوطانهم والحب من مؤسساتهم التي خدموها بكل ما يقدرون من قابلية علمية وقوة شباب وإخلاص في العمل، وهذه الشاعرية والإحساس المرهف دعاه إلى الرد على الخصوم بعنف وشدة، فانحسر عنه الإخوان وباعده الأصدقاء إلا الذين يعرفون ما تحمل نفسه من شعور وحنين ومشاعر رقيقة ورقة الإحساس ولوعته، نسوا وداعة نفسه واحترامه لرأيه لتغير رأيهم، لذلك لما حاولت أن أكتب عنه فلم أجد من أفرد عنه دراسة في كتاب مع اتساع علمه وكثرة مؤلفاته وما قام به من تحقيق، وقد وجدت في تاريخ شعراء سامراء للشيخ يونس السامرائي ثلاث صفحات، وفي (الأعضاء المراسلون) أربع صفحات كتبها بنفسه، وفي معجم البابطين صفحتين، وقد كتب عنه علي الخاقاني في شعراء بغداد، كما ذكر الشيخ يونس، وفي أعلام الأدب الحديث في العراق تأليف الأستاذ مير البصري أربع صفحات، وقد عنيت به مجلة الديوان التي يصدرها الأستاذ محمد سعيد الطريحي في هولندة، فنشرت له في العدد الأول مختارات من شعره، والعدد الثالث ترجمة حياته وقصيدة من شعره، وقد وفت في هذا المقال بجمع كتبه وما حقق من التراث . وهي الترجمة الوافية عن حياته وأدبه .

امتاز شعره بالقوة في النسج، والجزالة في الأسلوب، والعمق في المعنى، وعسى أن ينصفه أحد طلابه وعارفي فضله في دراسة موسعة. فقد عانى الرجل وكثر علمه وزاد نثره في أرجاء الوطن العربي ■